الاخ ساروفيم ڤكتور (١٨٧٩-١٩٢٢)

من اخوة المدارس المسيحية «الفريز»

بقلم ا. م. ب.

٤

تآليفه

ما قيل في كتاب تاريخ الاداب

كان الاخ ساروفيم في مولان Moulins في فرنسة ، لمـّا طبع كتابه . يتناولت الصحف الكتاب بالتحبيذ والاطراء ، والتنـديد والانتقاد المشروع والغير المشروع . فمن قائل كالمقطم وغيره: انه بدعة غير مستحبة وانه نصراني محض ، اي انه وُضع لتحقير الاسلام وكشف معايبه لما يُذكر فيه من الملـل والشيع الاسلامية . كأنّ ما كتب عن القرآن والحديث والفقه وعلم الكلام عند العرب هو شيء غير تعريف اللغة في كل اطوارها . . .

ومنهم من رأوا فيه تزلفاً للمسلمين ، وتحبيذاً لمعتقداتهم ، وتعريفاً لمراجعهم الدينية المدوّنة . . . حتى انهم حملوا رؤساء رهبانية المؤلف ، بعد موته رحمه الله ، على حذف معظم ما قيل في العلوم الاسلامية ، مما أسف له كثيرون.

لكنّ السواد الاعظم من الكتبة وارباب الصحف والادباء لم يبخلوا على المؤلف وكتابه ، بعد انتقادٍ مجرّد عن الغاية والانانية والتعصّب ، بتقـاريظ تشرّف ناسجي بردها ، وتقرّ بفضل الاخ ساروفيم وبمزية انشائه ، وتحبّذ عمل من يُتمّ ما نقص من هذا السفر النفيس ، تخليداً لذكر مؤلفه رحمات الله عليه.

اما المؤلف فلم يصله شيء مما قيل في تحبيذ وذم كتابه ، لانه كان بعيداً عن بلاده المحبوبة ، بعيداً عن الملحوظات التي كان يمكن ان تقدم له فيصلح ما شوّه من محاسن تاريخه ، بكر التواريخ المـدرسية . كان يقاسي مضض

الآلام ، متناسياً ثمرة اتعابه وخلاصة مطارفه وابحاثه وهديته التي اهداها الى مطارفه واصدقائه والناشئة العربية العزيزة.

ونرى من واجبنا ان نذكر هنا قليلاً من كثير مما كُتب في « تاريخ الآداب » مختصرين كلّ الاختصار في التقاريظ الاجمالية ، مهتمين بما يبيّن صفات الكتاب وفضل المؤلف :

قال الاستاذ داود بركات في الاهرام :

« . . . حسن المنهج واضح الطريقة. لم يتبع المؤلف طريقة غيره من مؤرخي الآداب العربية ، ولم يقسم هذا التاريخ الى اطوار ، ملتزماً التاريخ السياسي ، بل افرد لكل طائفة من الشعراء والكتاب والخطباء والفلاسفة والمنشئين والعلماء والاطباء باباً ، ماضياً في الكلام عنهم في كل عصر ، منذ نشأت الآداب العربية ، في حدود التاريخ الى ان اعتراها الاضمحلال . ثم افرد باباً للكلام في النهضة الحديثة ، ولم يغفل ان يؤرخ بعض اركانها تاريخاً حسناً.

« وقد أعجبنا بطريقة ضبط الاعلام ، فهذا امر يقع فيه كثير من الخطأ واللحن ، وفي المدارس على وجه التخصيص ، واعجبنا ايضاً بتفسير الكلمات . والكتاب نافع كل النفع لتلامذة المدارس. وهو لاهل الادب والفضلاء انفع. فنثني على واضعه ، ونتمنى ان ينال ما يستحقه كتابه من الرواج والانتشار. »

وقال المرحوم الاب شيخو اليسوعي ذاكراً الطبعة الثانية ، في المشرق :

« . . . قد تعددت منذ عشرين سنة ، تواريخ الآداب العربية . . . ولكل من هذه الكتب مزايا ونقائص . ولعلّ احسن ما نُشر الى اليوم تاريخ الاداب لاحد اخوة المدارس المسيحية ، فقد وجدناه أحرى من غيره ، ان يودع في ايدي تلاميذ المدارس ، لكثرة فوائده وحسن تبويبه ، وانسجام عبارته ، وتذييله ببعض الحواشي التاريخية واللغوية ، واطلاع المؤلف على المصادر القديمة والحديثة التي ساعدته على انشائه . . . ومن خواصه اعتداله في الحكم عن الكتبة الاقدمين والمحدثين ، دون مراعاة الوجوه في انتقاده . وقد احسن اذ قصر الكلام على الموتى دون الاحياء . على اننا لا ننكر ان هذا الكتاب يحتاج الى تحسين وزيادة تدقيق في بعض التواريخ ، والتلطيف من بعض العبارات

الثنائية الزائدة ، واختصار تراجم بعض المحدثين ، لعدم انطباقها مع سواها . وغاية ما تتمنى ان يصبح هذا الكتاب كدستور امين وركن مكين لمعرفة الاداب العربية وتاريخها في المدارس العمومية ، ولاسيما الكاثوليكية . »

وقال الاديب صديق شيبوب في البصير الاسكندري بتاريخ ٢١ دسمبر ١٩١٥ :

« . . . لا شكّ في ان البحث في تاريخ الاداب ، بحثاً شاملاً مختصراً مفيداً ، صعب جداً ، لانه يتناول ١٥ قرناً واكثر . . . فكتاب تاريخ الاداب العربية سدّ ثلمة واسعة في صرح هذه اللغة ، كانت ولا تزال موضوع اهتمام المحبين لها العاملين على انهاضها .

« ومن فضائل الكتاب ، انك لا تعثر فيه على كلمة تمسّ الاداب والاديان . وهو في ثنايا سطوره يحض على الفضيلة ويُظهر جميل تأثيرها ، مشنّعاً ما نُظم في المجون . . مما يندى له الجبين . . . ولا بدع فالمؤلف مثقف الشبيبة ومهذب اخلاقها .

« ويجدر بنا هنا ان نلفت النظر الى انشاء الكتاب . فقد نسج فيه المؤلف على نمط السهل الممتنع ، مبتعداً عن التركيب المبتذل ، متحدّياً حسن الوضع وضبط الانشاء ، مما لا ينفر من مطالعته اللغوي الاديب ، ولا يصعب على الكاتب تفهّم معانيه . وله في الحاشية تفسير لكلماته التي يغلق فهمها على المبتدئ ، وشرح وافٍ لمستصعب الابيات . »

ثم اورد بعض مآخذ منها ان المؤلف اغفل ذكر النثر في الجاهلية ومعارف العرب في ذاك العصر . وانه اهمل ذكر عمر بن ابي ربيعة ، واطال البحث في البدع الاسلامية . واغفل عمداً ذكر الادباء الاحياء . وختم قائلاً :

« ليست هذه المآخذ منقصة من فضل المؤلف او قدر الكتاب ، فاكثرها راجع الى سعة الموضوع وضيق المجال في مؤلف وضع ليكون متداولاً بين ايدي الطلبة .

« ولو لم يكن فضل المؤلف غير سدّ النقص ، لكفاه فخراً . فضلاً عن محاسن الكتاب العديدة ، والمصاعب التي يعانيها الباحث في موضوع وعر المسالك

واسع الاطراف بعيد المآخذ ، غزير المواد كتاريخ الاداب العربية.

«فاذا شكرناه، فانما نشكره بلسان اللغة ومتأدبيها الذين اهدام مثل هذا الكتاب النفيس . واذا اثنينا عليه انما نثني على ادبه الجم واجتهاده . على ان يكون قدوة لغيره من الادباء ، فينشطوا الى مثل عمله المجيد ، جزاه الله بما يجزي به الفاضل الاديب.»

وقال صاحب جريدة لسان العرب بالاسكندرية ، من رسالة ، في ٢٩ يناير ١٩١٦ .

« كتاب موفور الفائدة ، جم النفع ، صحيح اللغة ، نازل من لبها في الصميم . اخذ بمحاسن الفاظها وجزالة عباراتها ، على صحة في تاريخ أئمتها ونوابغها ، وعدالة في الحكم على كبرائها وشعرائها ، وحسن اختيار الاحسن من اقوالهم . ولعمري لو خُيروا لما اختاروا من ذلك الاحسن سوى ما أثبت لهم ، ولو احتكموا الى شيوخ عكاظ لما حُكم لهم أو عليهم بأعدل مما رأيناه...»

وقال الاستاذ خليل شيبوب ، الشاعر الرقيق ، من رسالة سنة ١٩١٦ :

« لو فُهمت الغاية التي وُضع لها هذا الكتاب ، لما وسعت اللغة كلمة يثني بها على مؤلفه . فهو انما وضع لتفقيه تلامذة المدارس وتعليمهم «آداب اللغة العربية» . وما آداب اللغة سوى بحر خضم . يزخر عبابه ولا يسبر غوره . وروض تضاربت الوان زهوره ، وتشاكلت صفوف ثماره واغراسه . فجاءها المؤلف بصدر رحيب وقلم لبق ، متناولاً منها كثير الفائدة . مشيراً الى قليلها لا يُفضل شيئاً من النزر اليسير ، ولا يتجاوز صبر القارئ في الجم الكثير . وهو اول كتاب خُدمت به المدارس هذه الخدمة الجلى ، وضمنت به اللغة على الناشئة عهد رُقي وفتح قريب . »

ويحسن لدينا ان نختم هذا البحث بكلمة للاستاذ فؤاد افرام البستاني كتبها في نقد الكتاب المذكور ، قال :

«من شروط النقد الادبي المنصف ان يضع الناقد نفسه في زمن المؤلف ومكانه ، فينظر في البيئة التي ظهر فيها الاثر المنقود ويدرس ما تقدمه من الآثار في نوعه ، وما رافقه في الظهور ، وما تبعه ؛ ويحدد الصلة بين هذه

الآثار جميعها فيرى مبلغ تأثر المؤلف المذكور بما سبقه، ومبلغ تأثيره في ما تلاه ، ليعطي كل ذي حق حقه ، فيقرب حكمه من الصواب .

« ونحن اذا القينا نظرة اجمالية على العصر الذي ظهر فيه « تاريخ الآداب العربية » للمرحوم الاخ ساروفيم ڤكتور ، وما كان فيه من تواريخ الادب ، ومبلغ هذه التواريخ من مقتضيات ذاك الفن ، ادركنا قيمة الخدمة التي أداها المؤلف لطلاب المدارس خاصة ولادباء العربية عامة .

« لم يكن ما يذكر من تواريخ الادب العربي ، سنة ١٩١٤ ، الا تاريخ بروكلمان وتاريخ هوار ، وكلاهما قليل المنفعة لادباء العرب اذ ان الاول كتب بالالمانية والثاني بالافرنسية ولم يُعرّبا . اما في العربية فلم يكن ليذكر من هذا النوع الّا كتاب جرجي زيدان ، وهو مؤلف طويل توخى فيه صاحبه الفائدة التاريخية أوّلا ، فألمّ باكثر ما امكنه من تراجم الادباء ، فكان مرجعاً مفيداً للمشتغلين بتاريخ الادب ولكنه قلما افاد طلّاب المدارس ، لانصرافه عن الاسلوب التدريسي وما يتطلبه من الابحاث المستندة في اكثرها الى تحليل الآثار وانتقادها والحكم عليها . فينتج إن كتاب الاخ ساروفيم ، بما فيه من حصر القسم التاريخي بتراجم الفحول من الشعراء ، والنوابغ من المفكرين ، وبما تخلله من تجربة في النقد الادبي لا بأس بها في غالب الاحيان ، قد اتى في حينه ، فسدّ ثلمةً واهية في تدريس الادب العربي . ولا يضيره اليوم الا انه ، عند ما أُعيد طبعه لثلاث سنوات خلت ، تُرك على ما كان عليه سنة ١٩١٤ ؛ فأتى متأخرًا عن عصره ، بعد ان كان سابقاً اياه بشوط بعيد . وهي خلّة نراها في اكثر الكتب التي يستأثر الله بمؤلفيها قبل ان يتمكنوا من اعادة النظر فيها ، فتبقى واقفية بينا يسير العصر حولها بالعلوم والفنون ، فتتقهقر بحكم الطبع وتصبح قاصرةً عن الغاية المتوخاة .

على ان هذا القصور في كتاب الاخ ساروفيم يمكن معالجته بسهولة بان يُحذف منه بعض المغالاة في التقريظ ، ويعمّم نقد الآثار فيه ، ويُضاف اليه بعض التراجم ، ويحتفظ كل الاحتفاظ بالمقدمات والتوطئات الجزيلة الفائدة ، فيصبح افضل كتاب مدرسي من نوعه .»